الفصل الأول

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(قرآن كريم- سورة القلم :٤)

كيف بدأ موضوع هذه الدراسة ؟

منذ عشر سنوات أعطاني أحد أبناء عمومتي ، وهو السيد/ محمد مهتار الفاروقي نصًا مكتوبًا بالآلة الكاتبة للمؤرخ الفرنسي «لامارتين» . وكان هذا النص يهدف إلى أن محمدًا ﷺ وهو نبي الإسلام ﷺ كان أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وكان السيد مهتار قد اعتاد أن يمرر المعلومات إليَّ معتقدًا أنني أحْسِنُ استخدامها في الوقت المناسب ، والمكان المناسب . وقبل أن يعطيني ذلك النص المنسوب إلى «لامارتين» كان قد أهدى إليَّ كتابًا بعنوان : «نداء المئذنة» وهو كتاب غالي الثمن من تأليف «البيشوب كنيث كراج» . وبتحليل ذلك الكتاب اكتشفت غِشَّ وخداع المستشرقين المسيحيين !

وألهمني إعجاب ومديح لامارتين لنَبِيِّنا ﷺ ووجدت في نفسي رغبة قوية في مشاركة أفكاره عن نَبِيِّنا ﷺ مع إخوتي المسلمين ، ولم تلبث الفرصة زمنًا طويلاً حتى سنحت لي .

ولقد تلقيت مكالمة هاتفية من إحدى الجمعيات الإسلامية في بلدة «دانهوسر» وهي مدينة صغيرة في شمالي «ناتال» [1] ، وكان أعضاء هذه الجمعية قد نظموا احتفالاً بمناسبة «المولد النبوي الشريف» . ووجهوا إليَّ الدعوة لكي ألقي محاضرة بهذه المناسبة الكريمة . ولذلك اعتبرت ذلك تشريفًا لي ،

(١) بجمهورية جنوب إفريقيا .

وفرصة متاحة ، وميزة كبيرة ، ووافقت على ذلك فورًا . وعندما استفسروا عن موضوع المحاضرة لإعداد الدعاية لها اقترحت أن يكون موضوعها استلهامًا لما كتبه لامارتين هو : «**محمد ﷺ أعظم العظماء**» .

أخطاء متكررة :

عندما وصلت إلى «دانهوسر» لاحظت وجود كمية كبيرة من الإعلانات والملصقات عن اللقاء الذي كنت دعيت لحضوره ، وكان مضمون تلك الإعلانات يقول : إن ديدات سيلقي محاضرة عن «**محمد العظيم**» ﷺ ودَبَّ اليأس في قلبي إلى حَدٍّ ما ، وعندما حاولت الاستفسار عن ذلك أخبروني أن التغيير في عنوان المحاضرة يرجع إلى خطأ عامل الطباعة .

وبعد حوالي شهرين من ذلك ، تلقيت دعوة مماثلة . وكانت الدعوة هذه المرة من إحدى الجمعيات الإسلامية في «بريتوريا» العاصمة الإدارية لجمهورية «جنوب إفريقيا» ، وكان الموضوع الذي اقترحته هو نفس الموضوع :«**محمد ﷺ أعظم العظماء في العالم**» . ولخيبة أملي تمَّ تغيير العنوان مرة أخرى إلى :«محمد العظيم ﷺ » ، وقدمت إليَّ نفس الأسباب والمعاذير ، ووقعت هاتان المصادفتان في موطني جنوب إفريقيا . ولكن دعوني أقدم إليكم مثالاً آخر لما نعاني من مركب النقص والشعور بالدونية - وهو جزء من أمراض الأمة .

ولم يختلف الشأن نفسه في أمريكا :

وفي أثناء رحلتي لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية العظمى في عام ١٩٧٧ ، اكتشفت أن رجالنا في الدنيا الجديدة أقدامهم أيضًا مصنوعة من الصَّلصال . ومن بين الخبرات والتجارب المحزنة التي صادفتني أعتقد أن هذه التجربة تكفي وحدها للبرهنة على صحة ما أشرت إليه .

قرر المسلمون في «إنديانا بوليس» أن ينظموا ما يلزم لكي أقوم بإلقاء محاضرة لي بعنوان : «**ما يقوله الإنجيل عن محمد ﷺ** » واتفقوا على أن يعلنوا ذلك بالضبط ، ولكن خنوعهم لم يمكنهم من ذلك . لقد ظنوا أن عنوان محاضرتي كان عنونًا فضفاضًا حافلاً بالمبالغة ، ولذلك أمْلَتْ عليهم حكمتُهم (هل هي

حكمة؟) أن يخففوا من الغُلَواء وجعلوا عنوان محاضرتي هو : «نبي في الإنجيل» . . ولا شك في أنك ستجد العنوان الذي اقترحوه للمحاضرة عنوانًا ميتًا تافه الدلالة . أيّ من العُنوانين يمكن أن يجذبَ المسلم والمسيحي واليهودي والهندوسي إلى حضور المحاضرة؟ ماذا تعني كلمة «نبي»؟ بالنسبة إلى أغلب الناس ، فهي تعني «أي نبي» من الأنبياء الكثيرين الذين ورد ذكرهم في الإنجيل : أيوب ، يوئيل ، يونان ، عزرا ، اليَسَع ، حزقيال ، هم عدد قليل من الأنبياء الكثيرين الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، وكما هو متوقع كان عدد الحضور أقل مما كان منتظرًا .

عقدة النقص :

ما هو السبب في هذا المرض؟ ما هو السبب في عقدة الشعور بالدونية والانحطاط عن الآخرين؟ نعم ! نحن أمة مستضعفة . إن القدرة على الحركة الذاتية مسلوبة منا ، وليس ذلك بسبب أعدائنا فقط ولكن بسبب أصدقائنا وأتباع ديننا ذوي الأرواح الميتة . إننا لا نجرؤ حتى على مجرد ترديد ما يشهد به الله سبحانه وتعالى لنبينا ﷺ ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم :٤) .

الأعظم تأثيرًا :

لا غضاضة بالنسبة لأي شخص ، ومن الطبيعي جدًا بالنسبة لأي شخص أن يحب ، وأن يمدح ، وأن يرفع إلى أعلى الدرجات وأن يمجد بطولة القائد الذى يتولى قيادته سواء كان ذلك القائد رجل دين هنديًا أو قديسًا أو نبيًا ، ونحن نفعل ذلك في كثير من الأحيان .

وعلى كل حال ، لو أنني كنت سأقدم هاهنا ما قد قاله أو كَتَبَهُ علماء المسلمين عن نبي الإسلام ﷺ لكان من الممكن أن يعتبر ذلك مجرد مبالغة ، أو خيال جامح ، أو محاولة من محاولات عبادة شخص من الأشخاص من وجهة نظر المتشككين من خصوم الإسلام . وبناء على ذلك أرجو أن يُسْمَحَ لي أن أقتبس بعض أقوال المؤرخين المحايدين ، والنقاد المنصفين ، أو أن أقتبس حتى

أقوال بعض الأعداء المعروف عنهم العداء الصريح لرسول الله العظيم محمد ﷺ ، ولو كانت شهادة الإنصاف والاعتراف بصدق النبوة ، وعظيم المكانة التي يدلي بها غير المسلمين لنبي الإسلام ، لا تصل إلى قلوب المنكرين ، فمن الممكن أن نقطع ، ونتأكد مِنْ أنهم مكابرون معاندون رافضون للحق مهما شهد به شهود الحق ، ودلت عليه أدلة الصدق . إنهم يرفضون نعمة الإيمان بحقائق الإسلام .

في الأيام الراهنة ، تم طبع كتاب بعنوان الـ١٠٠ أو أعظم مائة ، أو أعظم مائة شخص تأثيرًا في التاريخ البشري . ولقد كتب هذا الكتاب شخص يدعى : «مايكل هـ .هارت» وهو يوصف بأنه مؤرخ ، وعالم في الرياضيات ، وفي علم الفلك . ولقد بحث في جنبات التاريخ البشري للعثور على الرجال الذين كان لكل منهم أعظم تأثير في تاريخ البشر . وهو يحدد لنا في كتابه ذاك مائة شخص هم الأعظم تأثيرًا في التاريخ البشري ، ومن بينهم أسوكا (مؤسس أكبر إمبراطورية هندية في القرن الثالث قبل الميلاد) وأرسطو (أشهر فلاسفة اليونان) وبوذا (مؤسس البوذية) وكونفوشيوس (مؤسس الكونفوشية) وهتلر (مؤسس النازية الألمانية) ، وأفلاطون (من أشهر فلاسفة اليونان) وزاردشت (مؤسس الزرادشتية) . ومؤلف الكتاب لم يعطنا مجرد إحصاء بياني لأشهر مائة شخص في العالم من حيث تأثيرهم في الناس ، ولكنه أيضًا يضع تقويمًا لدرجة تأثيرهم ، ويرتبهم حسب درجة تميز كل منهم من واحد إلى مائة . وهو يوضح لنا الأسباب التي حدت به إلى هذا الترتيب . وليس مطلوبًا منا أن نتفق معه في كل ما ذهب إليه ، ولكننا لا نستطيع أن نمتنع عن الإعجاب بالبحث الذي قام به ذلك الرجل أو نمتنع عن الاعتراف بأمانته .

والاعتبار المثير للدهشة في اختياره للشخصيات الأكثر تأثيرًا في العالم هو أنه يضع نبينا الكريم ، النبيَّ محمدًا ﷺ باعتبار أنه «الأول» ، أول «العظماء المائة الأكثر تأثيرًا في العالم» مؤكدًا بهذا دون أن يدري الشهادة التي شهد بها الله لصاحب الوحي الإلهي الأخير إلى العالم ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب :٢١) .

عيسى عليه السلام هو رقم (٣) :

وإذ جعل «هارت» نبي الإسلام ﷺ في المرتبة الأولى ، فهو بطبيعة الحال قد أرضى المسلمين . ولكن اختياره ذاك قد سَبَّبَ صدمة لغير المسلمين وخصوصًا اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا ذلك خلَلاً جسيمًا ، وخطأ عظيمًا . ما هذا؟ إذ جعل عيسى عليه السلام في المرتبة الثالثة ، وجاء موسى عليه السلام في المرتبة الأربعين!! .

هذا شأن يصعب عليهم كثيرًا أن يتقبلوه . ولكن ماذا يقول هارت في هذا الصدد تبريرًا لوجهة نظره؟ . . إنه يبرر وجهة نظره كما يلي إذ يقول : «حيث إنه يوجد على وجه التقريب من المسيحيين ضعف عدد المسلمين في العالم ، يجوز بطبيعة الحال أن يبدو غريبًا أن أعتبر محمدًا ﷺ في أعلى الدرجات ، وأولى بالتقديم من حيث التأثير في تاريخ العالم عن عيسى عليه السلام . ويوجد سببان رئيسان لهذا القرار . أولهما : أن محمدًا ﷺ قد لعب دورًا أكثر أهمية في تأسيس وتطوير الدين الإسلامي من الدور الذي لعبه عيسى المسيح عليه السلام في تطوير الديانة المسيحية . وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام يعتبر مسئولاً عن الجوانب الرئيسة الأخلاقية في الديانة المسيحية (من حيث اختلافها عن الأخلاقيات اليهودية) ، فلقد كان القديس بولس هو المسئول الرئيس عن تطوير اللاهوت المسيحى ، وهو الذي وضع أسس الدعوة إلى الدين المسيحي ، والقديس بولس هو الذي كَتَبَ كمية كبيرة من العهد الجديد . ولقد كان محمد ﷺ هو المسئول الوحيد عن الإسلام في جانبه اللاهوتي ، وجانبه الأخلاقي على حد سواء . وبالإضافة إلى ذلك قام محمد ﷺ بالدور الرئيس في وضع أسس الدعوة إلى دينه الجديد ، ووضع قواعد العبادات في الإسلام . ذلك بالحرف الواحد هو ما كتبه «مايكل هارت» في كتابه عن المائة (ص٣٨ ، ٣٩) .

القديس بولس هو مؤسس الديانة المسيحية :

وطبقًا لما يقوله «هارت» ، يتقاسم القديس بولس والمسيح عليه السلام شرف تأسيس الديانة المسيحية ، بل يذهب أحيانًا إلى أن القديس بولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية .

وأنا لا أستطيع أن أتفادى وأتجنب الاتفاق تمامًا مع «هارت» . فمن بين الكتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد ، نجد أن أكثر من نصفها إنما هو من تأليف القديس بولس . ولو عقدنا مقارنة بين المسيح عليه السلام وبين القديس بولس في هذا الصدد ، سنجد أن المسيح عليه السلام لم يكتب كلمة واحدة من الكتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد .

ولو أمكن لك - أيها القارئ الكريم - أن تضع يدك على الإنجيل المعنون بعنوان : «إنجيل الحروف الحمراء» ستجد كل كلمة يفترض أن المسيح نفسه كان قد نطق بها مكتوبة بالحروف الحمراء وبقية الكلمات مكتوبة بلون آخر هو اللون الأسود المعتاد . ولا تدهش عندما تكتشف أن أكثر من ٩٠٪ مما يسمى بالأناجيل وما يسمى بإنجيل عيسى مكتوبة بالحبر الأسود !

هذا هو الاعتراف الصحيح بشأن ما يطلقون عليه اسم الإنجيل . وعند المواجهة الفعلية مع الإرساليات المسيحية ستجد أنهم يقتبسون ١٠٠٪ مما يذكرونه باعتبار أنه نصوص من الكتاب المقدس مما كتبه القديس بولس .

لم يكن لسيدنا عيسى عليه السلام أتباع كثيرون في حياته :

قال عيسى عليه السلام : «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» .

(يوحنا ١٤-١٥) .

وقال أيضًا : «فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعَلَّمَ الناس هكذا يُدْعَى أصغر في ملكوت السموات . . . . . .» . (متى ٥-١٩) .

وأي شخص مسيحي يجادلك وتسأله : «هل أنت تحافظ على الوصايا؟» سيجيبك بقوله : «لا!» ولو سألته أيضًا : «ولماذا لا تحافظ على الوصايا!» سيجيبك - لو كان قد درس كتابه المقدس - بقوله : «لقد دفنت الوصايا في الصليب»! وهو يعني بذلك أن الوصايا قد ضاعت بموجب قول أتباع المسيح بعد صلبه فيما يزعمون : «نحن نعيش الآن في عار!» .

وفي كل مرة تواجه فيها أي شخص مسيحي بما قاله ربه وسيده

المسيح عليه السلام ، فهو سيواجهك بشيء مما قاله بولس في رسائله إلى الكورنثيين ، أو أهل غلاطيه ، أو أهل إفسوس ، أو إلى الفليبيين أو غير ذلك . ولو أنك سألته : من هم أولئك الذين تذكرهم؟ سيقول لك : «بولس ، بولس ، بولس!» ولو سألته : «من سيدك الذي تتبع دينه؟» سيقول لك : «عيسى!» ولكنه دائمًا سيعارض أقوال عيسى عليه السلام بأقوال بولس الذي يؤمن بكل أقواله !

ولا يوجد مسيحي مثقف واحد يعارض حقيقة أن المؤسس الحقيقي للمسيحية هو القديس بولس . وبناء على ذلك وضع «مايكل هـ .هارت» المسيح عليه السلام بالكاد في المرتبة الثالثة .

لماذا إغضاب الزبون ؟

ووضع المسيح عليه السلام في المرتبة الثالثة على هذا النحو على يد مايكل هـ . هارت يضع أمامنا - نحن المسلمين- سؤالاً بالغ الأهمية ، هو : لماذا ينشر مؤلف أمريكي كتابًا يصل عدد صفحاته إلى (٥٧٢) صفحة في أمريكا ، ويباع في أمريكا بمبلغ خمسة عشر دولارًا للنسخة الواحدة ، ثم يجازف بأن يقول في كتابه كلامًا من شأنه أن يُغضب ويُثير حفيظةَ القراء الذين يتوقع أن يقوموا بشراء كتابه ذاك ؟ .

من الذي سيشتري هذا الكتاب؟ بالطبع ، لن يقوم بشراء نسخ هذا الكتاب باكستانيون ، ولا بنجلاديشيون ، ولا عرب ، ولا أتراك! وذلك فيما عدا بعض نسخ قليلة من الكتاب تباع هنا أو هناك ، نجد أن العدد الأكبر من الزبائن الذين سيشترون الكتاب سيكونون من بين ٢٥٠ مليون مسيحي وستة ملايين يهودي في أمريكا . لماذا إذن يغضب المؤلف زبائنه؟ ألم يسمع بالحكمة المشهورة التي تقول : «الزبون على حق!» لقد سمع بها طبعًا . فما هو السبب إذن في اختياره الجريء بوضع محمد ﷺ على رأس قائمة المائة شخص الأكثر تأثيرًا في العالم؟ وقبل أن أنهي هذا الاقتباس من كتاب هارت سأقتبس اعتذاره الأخير عن قراره ذاك ، إذ يقول مايكل هارت بالحرف الواحد ما نصه : «**إن اختيار محمد ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيرًا يجوز أن يدهش بعض القراء ،**

ويجوز أن يثير التساؤل لدى أشخاص آخرين ، ولكنه ﷺ كان هو الرجل الأوحد في التاريخ الذي اكتمل له التوفيق التام على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي» (كتاب المائة : ترتيب أكثر الأشخاص تأثيرًا في التاريخ- نيويورك : شركة هارت للنشر ، سنة ١٩٧٨ - ص ٣٣) .

مَن الذين كانوا أعظم قادة في التاريخ ؟

(مجلة تايم الأمريكية في ١٥ يوليه ١٩٧٤)

جعلت مجلة تايم العالمية الشهيرة هذا الموضوع هو موضوع الغلاف . وكان بداخل المجلة مقالات كثيرة تحت مختلف العناوين مثل : ما هي مقومات القائد العظيم؟ وأيضًا : على امتداد التاريخ ، من الذي يقدِّر عظمة العظماء ؟ وقامت مجلة تايم بسؤال مجموعة من المؤرخين وكبار الكُتَّاب ورجال الأعمال وغيرهم عن اختيار كل منهم في هذا الصدد . ووصف كل منهم مرشحه للعظمة في ضوء تقديره بطريقة موضوعية بقدر الاستطاعة البشرية ، طبقًا لدراسة كل منهم وما أتيح له من معارف سابقة .

مَنْ يعرف الدكتور سالازار ؟

اعتدت - وكان يسرني دائمًا - أن أصطحب أشخاصًا غير مسلمين في جولة داخل مسجد في هامبشاير الجنوبية ، وهو «مسجد الجمعة» في مدينة «ديربان» في جنوب إفريقيا .

وفي إحدى المناسبات كنت أستضيف اثنين من البرتغاليين ، هما : رجل وزوجته . وفي مرحلة من مراحل المناقشة معهما قال الرجل البرتغالي : «الدكتور سالازار كان أعظم رجل في العالم!» ولم أجادله في ذلك لأنني كنت أعرف القليل عن الدكتور سالازار فيما عدا أنه في وقت ما كان دكتاتورًا في البرتغال فعل الكثير من أجل أمته . وكان الزائر على كل حال يتكلم في حدود معارفه الخاصة به كمجرد وجهة نظر ، وحكم مسبق لديه .

محمد ﷺ يستحيل تجاهله :

يبدو أن أولئك الذين شاركوا في الدراسة التي أجرتها مجلة تايم عن العظماء في العالم لم يستطع واحد منهم أن يتجاهل محمدًا ﷺ .

ولقد سجل المؤرخ الأمريكي وليام ماكنيل ، وهو أستاذ التاريخ في جامعة شيكاغو بشهادته قائلاً بالحرف الواحد : «لو كنا نقوم بقياس القيادة قياسًا شاملاً سيكون لدينا أسماء هؤلاء القادة العظماء في التاريخ : المسيح عليه السلام ، بوذا ، محمد ﷺ ، كونفوشيوس ، وهم أعظم الأنبياء في العالم . . . . . » .

ولم يخُصْ «ماكنيل» في التفاصيل ، ولم يُعطِ أي تفسير عن السبب في أنه قد ذكر عيسى عليه السلام أولاً قبل محمد ﷺ الذي جعله في المرتبة الثالثة ، وربما كان ذلك بسبب قوة العادة . ومن المحتمل جدًا أن «ماكنيل» مسيحي الديانة ، وعلى كل حال لن نناقشه في ذلك ثم يأتي : «جيمس جافين» الذي وصفه بأنه رجل القوات المسلحة الأمريكية ، وهو جنرال متقاعد ، يقول :

«**من أبرز القادة الذين أحدثوا أعظم تأثير في العالم عَبْرَ الأجيال ، محمد ﷺ ، وعيسى المسيح عليه السلام ، وربما نعتبر أن منهم أيضًا «لينين»** ، ومن الممكن أن نعتبر منهم أيضًا «ماو» . . وبالنسبة للقائد الذي نستطيع أن نستفيد من مميزاته الآن فأنا أختار «جون فيتز جيرالد كيندي» .

ولا يقول الجنرال المتقاعد أكثر من ذلك ، ومع ذلك يلزم أن نوجه إليه التحية . إنها إيماءة عظيمة أن يكتب اسم محمد ﷺ قبل المسيح عليه السلام ، ولم يكن ذلك مجرد سهو أثناء الكتابة .

ونصل الآن إلى رأي «جول ماسرمان» المحلل النفسي الأمريكي وأستاذ علم النفس في جامعة شيكاغو ، وهو يعطينا ما لم يُعْطنا إياه المشاركون الآخرون بالرأي في هذا الموضوع . إنه يعطينا السبب الذي من أجله يختار أعظم القادة ، في نظره ، تأثيرًا في العالم في كل العصور .

إنه يريد منا أن نكتشف ما ينبغي أن نبحث عنه في الرجل الأعظم تأثيرًا في العالم ، وأن نكتشف المميزات التي تجعلنا نفرزه من بين سائر الناس الذين

عاشوا معه . ويجوز لنا أن نبحث عن وجود أي مجموعة من المميزات كما كان الشأن بالنسبة إلى «مايكل هـ . هارت» ، إذ كان يبحث عن الشخص الذي أحدث أعظم تأثير .

وعلى كل حال ، لا يريد منا «ماسرمان» أن نعتمد على الخيال أو على أحكامنا المسبقة ، بل هو يريد أن يضع لنا المقاييس الموضوعية لإصدار الأحكام قبل أن نخلع صفة العظمة على أي شخص . وهو يقول : إن القادة يلزم أن يؤدي كل منهم ثلاث وظائف في غاية الأهمية .

● **الوظيفة الأولى للشخص العظيم القائد هي أن يحقق مصلحة للجماعة التي يقودها .....**

إن القائد - أيًا كان - يجب أن يكون مهتمًا بمصلحتك لا أن يكون مهتمًا بمسألة حَلب الأبقار ، أو كسب الأموال إشباعًا لمطامعه - مثل القس المدعو «جيم جونز» بمدينة جونستان في ولاية جيانا ، الذي ذاعت شهرته كداعية للانتحار الجماعي . وأنتم ستتذكرونه باعتبار أنه الرجل الذي ارتكب في خاتمة حياته الانتحار الجماعي مع ٩١٠ شخص من أتباعه في وقت واحد .

لقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تقتفي أثره ، وكان على وَشْك أن يتم القبض عليه لارتكابه بعض المخالفات القانونية ، ولكن ، قبل أن يتم القبض عليه رأى أنه من الحكمة أن يتولى إعدام نفسه بنفسه ، مع إعدام كل أتباعه في الوقت نفسه ، حتى لا يبقى منهم أحد لكي يشهد ضده . وخلط مشروب الليمون بسم السيانيد ، وأوعز إلى أتباعه أن يشربوه ، وفعلوا ذلك ، وماتوا كلهم مجللين بالعار ، وفي الوقت نفسه اكتشفت السلطات أن القس المدعو «جيم جونز» كان قد ابتز خمسة عشر مليونًا من الدولارات ، وأودعها في حسابه في بعض البنوك في أنحاء مختلفة من العالم . وكان ضحاياه بمثابة أبقار يقوم هو بابتزازها ، وكان يبتز أموالهم لكي يشبع شهوته في الحصول على المال الوفير إرضاء لنهمه وطمعه . والبطل في نظر «ماسرمان» يلزم أن يكون موجودًا لكي يفيد أتباعه وأعوانه دون أن يكون كل هدفه هو منفعته الشخصية .

● **الوظيفة الثانية هي أن القائد الحقيقي يجب أن يوفر لأتباعه نظامًا اجتماعيًا يشعر فيه الناس بالأمن :**

على النقيض من الماركسيين ، والفاشيين ، والنازيين ، والنازيين الجدد ، والأشكيناز ، والصهاينة ، وكل من نهج نهجهم ممن لم يذكرهم ماسرمان صراحة في مقالته بمجلة تايم . ولكن معتقدات ومشاعر ماسرمان واضحة كل الوضوح في هذا الصدد . إنه يبحث عن قائد سيقدم لقومه نظامًا اجتماعيًا يوفر حرية النفس لكل فرد ، ويحرر الفرد من الأنانية والجشع والتمييز العنصري ، لأن هذه المذاهب بموجب تكون اللفظ الذي تتخذ منه اسمًا لها يحمل كل منها بداخله بذور دماره وانهياره .

ويصور «عبد الله يوسف على» المجتمعات الفاسدة التي ينبغي ألا ينسج القائد الناجح نسيج مجتمعه على منوالها بقوله :

«لا يزال لدينا - مع كل الأسف - كثير مما يؤسف وكثير من الخطيئة ، وانعدام العدالة ، والظلم ، والممارسات الخاطئة ، والكراهية ، ولا تزال ممارسة العدوان على الآخرين تفضي إلى موت الضمير ، وتنهب فتات الخبز حتى لا تقتات بها أرواح الكادحين ، وتسلب الشفقة من القلوب عندما يتم سحق لحوم البشر في تراب الأرض . ولا يزال الجهل ينفخ في أبواق الجاهلين العالية الضجيج لكي يتم طمس وتشويه الحكمة الحقيقية . ولا يزال بعض الناس يسوقون أمامهم العبيد .... معارضين بذلك القوانين التي حرمت العبودية والاستعباد ! ولا يزال الطمع يلتهم الضعفاء ، ويمسك بهم بمخالب الجشع ..... بل هنالك ما هو أكثر من ذلك ..... ضاع صوت الفرد في ضجيج الغوغائية لدى الدهماء ، ولدى الحشود التي تهتف هتافات مجنونة بصرخات الحروب الجديدة ... إنها هي نفس الحماقات القديمة التي طال استنكارها» .

● **الوظيفة الثالثة للقائد الحقيقي هي أن يكون قادرًا على أن يمد أتباعه بمجموعة متسقة من العقائد الصحيحة :**

ومن السهل أن يتحدث أي شخص عن أخوة الإيمان بعقيدة واحدة ، أو عن

الأخوة البشرية ، ولكن نجد في جمهورية «جنوب إفريقيا» اليوم ألف نحلة دينية ونحلة ، ونجد التمييز العنصري بين ذوي البشرة البيضاء (المنحدرين من أصول أوربية) ويبلغ عددهم ثلاثة آلاف شخص وبين السود (المنحدرين من أصول إفريقية) .

وكنائس ذوي البشرة البيضاء تُفْرخ الآن كثيرًا من القساوسة ذوي البشرة البيضاء بسرعة فائقة ، ولكن طوال ما يزيد على ثلاثمائة سنة من الغزو الأوربي لأقطار إفريقية لم يعملوا على تخريج وترسيم قسيس واحد من ذوي البشرة السوداء . وحتى الآن ، لا يستطيع ذوو البشرة السوداء ، وذوو البشرة البيضاء ، والملونون ، والهنود أن يُصَلّوا داخل كنيسة واحدة في معظم الكنائس الإصلاحية الهولندية . والكراهية بين أصحاب المذاهب والملل المسيحية قد وصفها بدقة تامة الإمبراطور المسيحي «جوليان» عندما قال :

«لا توجد حيوانات مفترسة متوحشة تناصب الإنسان العداء بقدر ما تناصب المذاهب المسيحية بعضها البعض» . (أورده : سيد أمير علي في كتابه : روح الإسلام ص ١١١) .

وباستخدام المعايير الثلاثة السابق ذِكْرُها يبحث ويحلل «ماسرمان» شخصيات شهيرة مثل : لويس باستير ، وسالك ، وغاندي ، وكونفوشيوس ، والإسكندر الأكبر ، وهتلر ، وبوذا ، وعيسى عليه السلام والأنبياء الآخرين عليهم السلام ، ويصل في نهاية بحثه وتحليله إلى أن يقول :

«ربما كان أعظم قائد في كل عصور التاريخ هو محمد ﷺ ، فهو وحده الذي جمع المزايا الثلاث ، والوظائف الثلاث للقائد ، وكان موسى عليه السلام أقل منه درجة» .

ونحن لا نستطيع أن نتفادى الإعجاب بنزاهة وإنصاف وموضوعية «ماسرمان» ، فهو ، وهو اليهودي لم يتردد في أن يعتبر «أدولف هتلر» أيضًا واحدًا من عظماء التاريخ الذين عرض لهم بالدراسة كواحد من القادة الكبار . وكان جنسه الآري ، وكانت الأمة الألمانية العظمى التي يصل تعدادها إلى تسعين

مليون نسمة آنذاك ، وكانت الأمة الألمانية كلها مقتنعة كل الاقتناع مستعدة كل الاستعداد أن تمشي وراءه حتى تبلغ مصيرها المحتوم أو دمارها التام . إن هتلر للأسف الشديد قد قاد أمته إلى دمار أكيد .

وليس هتلر هو موضوع بحثنا . موضوع بحثنا هو البحث عن السبب الذي جعل ماسرمان ، وهو يهودي أمريكي ، ومأجور يعمل في خدمة الحكومة الأمريكية ، يعلن إلى مواطنيه الأمريكيين ، الذين يبلغ عددهم ما لا يقل عن مائتي مليون نسمة من المسيحيين واليهود ، أن أعظم قائد في كل عصور التاريخ لم يكن عيسى عليه السلام ولم يكن موسى عليه السلام ، ولكن أعظم قائد في كل عصور التاريخ في نظر ماسرمان هو محمد ﷺ ، هذا هو ما يلزم بحثه .

ماذا يقول المتشككون ؟

إن مايكل هـ . هارت قد وضع محمدًا ﷺ كرقم (١) في قائمته ، وهو قد وضع إلهه ومُخَلِّصَه عيسى عليه السلام باعتبار أنه رقم (٣) . لماذا؟ هل هو مرشُوٌّ أعطاه أحد رشوة كبيرة لكي يفعل ذلك ؟

وليام ماكنيل يعتبر أن سيدنا محمدًا ﷺ يستحق من التكريم والتعظيم ما يجعله يضمه إلى قائمة أول الأسماء الثلاثة للشخصيات المؤثرة في التاريخ . لماذا؟ هل كان وليام ماكنيل مَرْشُوًّا؟ جيمس جافن يضع اسم سيدنا محمد ﷺ قبل اسم المسيح عليه السلام . لماذا؟ هل كان جيمس جافن مَرْشُوًّا؟ .

جيمس ماسرمان قد حكم أيضًا بأن سيدنا محمدًا ﷺ هو الأول عند ترتيب أولويات الأشخاص الأكثر تأثيرًا في التاريخ ، بينما وضع نبي اليهودية التي يعتنقها ماسرمان ، موسى عليه السلام ، باعتبار أنه الثاني بعد سيدنا محمد ﷺ لماذا؟ هل كان جيمس ماسرمان مَرْشُوًّا ؟

ويقول توماس كارلايل في هذا الصدد : «هل يجوز لنا أن نفترض أن كل هذا المديح لنبي الإسلام محمد ﷺ ، كان يقوم على أساس من القدرة على الاحتيال والشعوذة ، والقدرة على خداع عقول الناس . . . .؟ إنني ، من جانبي ، لا أستطيع أن أقبل مثل هذا الافتراض بأي حال من الأحوال . . . . .

وإن الإنسان لابد أن يجد نفسه في حيرة ، ويجد نفسه عاجزًا عن تفسير حالة البشرية لو انتشرت عقائد طائفة الكويكرز مثل انتشار الإسلام في العالم» .

ويستطرد كارلايل ليقول : «وبعد ذلك ، تَنْصَبُّ السخريات على أي شخص يقول قولة حق وصدق عن محمد ﷺ أو عن الإسلام كما لو كان مَرْشُوًّا من العرب! إنهم يبالغون في قدرة العرب على ذلك . وأنا أكرر القول بأن هذا ممكن (من الناحية النظرية) ولكنه مستحيل (من الناحية العملية) .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ظهر في دولة النرويج «كويسلنج» واحد . ولقد حوكم كويسلنج بتهمة الخيانة وتم إعدامه [1] . وليس من المعقول أن تكون أمريكا وأن يكون الغرب كله من نسل كويسلنج لكي يقع تحت تأثير الدولارات البترولية القادمة من الشرق الأوسط في مقابل الاعتراف بعظمة نبي الإسلام ﷺ وفي مقابل احترام الإسلام والمسلمين . ولا يليق أن تتجه الاتهامات إلى المفكرين الشجعان المخلصين بسبب أحكامهم العادلة المنصفة لنبي الإسلام ﷺ ، يجب علينا جميعًا أن نحترمهم .

إننا نستطيع أن نستخلص بحق أن الله الرحيم الذي يعلم دوام العلم الجهود المخلصة لعباده إنما يحقق وعده الإلهي لنَبيِّه المختار محمد ﷺ عندما خاطبه في القرآن الكريم ، إذ قال له سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) .

وهذا الوعد الإلهي أن يرفع الله ذكر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يمكن التعبير عنه بعبارات أخرى مثل :

١- ألم نجعل ذِكْرَك ذائعًا بين الناس على تعاقب الأجيال؟

ب- ألم نجعل اسمك معروفًا مشهورًا لدى كل الناس ؟

جـ- ألم نجعل لك شهرة واسعة النطاق في كل أنحاء العالم؟

---

(١) المعنى هو أن القائد الذى يخدع شعبه وأتباعه، يكتشف الناس حقيقة خداعه. ولم يكن نبي الإسلام ﷺ مجرد شخص بارع خدع قومه من العرب السذج كما يشيع المتعصبون ضد الإسلام ذلك، بل كان ﷺ نبيًا صادق النبوة والمنصفون للنبي ﷺ جديرون بالاحترام ولا يستحقون أي اتهام . (المترجم).

الأصدقاء والأعداء ، والعلماء المنصفون من أتباع الأديان الأخرى ، مجبرون على أن يُزْجوا المديح والثناء والاحترام لنبي الإسلام العظيم ﷺ كما لو كانوا مسوقين إلى ذلك بقوة قاهرة خفية . ولكن الله العلي القدير يأمر مخلوقاته جميعًا حتى الشيطان نفسه ، ليكون في خدمته ، ولتحقيق مشيئته كما حدث ذلك بالنسبة إلى المسيح عليه السلام كما نجده في إنجيل متى (٤ : ١-١١) . حتى الشيطان نفسه يؤدي دوره المرسوم له كما يشهد بذلك الإنجيل في الموضع المشار إليه .

والبروفيسور «ك . راماكريشنا» وهو فيلسوف هندوسي في كتابه الموسوم باسم : «محمد نبي الإسلام ﷺ» يقتبس بعض أقوال كبير الشياطين ، أدولف هتلر لكي يبرهن على تفرد محمد ﷺ بالعظمة المنقطعة النظير .

إن البروفيسور راماكريشنا مثله في ذلك مثل جونز ماسرمان الذي عمد إلى قياس عظمة محمد ﷺ وفقًا لثلاثة معايير (انظر الملحق رقم (C) - ص٦٣) قد وجد في أقوال هتلر ، في كتابه المعنون بعنوان «كفاحي» ثلاثة أوجه لجوهر العظمة ، أو ثلاثة مقاييس لعظمة العظماء ، ومن النادر أن تتاح مجتمعة لشخص واحد كما عثر عليها مجتمعة لنبي الإسلام ﷺ .

يقول أدولف هتلر في كتابه كفاحي : «من النادر أن يكون صاحب نظرة عظيمة قائدًا عظيمًا ، والشخص الذي يستطيع تحريك حماس الجماهير من النادر أن يجمع بين هاتين الميزتين . إنه قائد جدير بالقيادة ، ذلك أن القيادة تعني القدرة على تحريك الكتل الضخمة من الجماهير . وموهبة ابتكار الأفكار لا يوجد رابطة تربطها بالقدرة على القيادة» .

ثم يستطرد هتلر قائلاً : «بعد أن فصل بين القدرة على القيادة والقدرة على ابتكار الأفكار الجديدة» : «والاتحاد أو المزج بين صاحب النظرية الجديدة ، والشخص القادر على تنظيم الجماهير ، والقائد القادر على قيادة الجماهير ظاهرة نادرة الحدوث في العالم ، وفي ذلك تكمن عظمة العظماء» .

ويعقب البروفيسور «راماكريشنا راو» على ذلك النص الذي اقتبسه عن هتلر بقوله : «**في شخص نبي الإسلام ﷺ شاهد الناس فعلاً هذه الظاهرة النادرة الحدوث ، ظاهرة اجتماع القدرة على صياغة أفكار ونظريات جديدة ، وظاهرة القدرة على تحريك الجماهير ، وظاهرة القدرة على القيادة الفعلية للجماهير تجتمع على وجه الأرض لأول مرة في شخص حقيقي من لحم ودم يمشي على قدميه فوق سطح الأرض ألا وهو نبي الإسلام ، محمد ﷺ** » .

مشاركة في نفس الرأي :

وقبل أن يتهم أحد البروفيسور «راماكريشنا» بخطأ الرأي أو بالرشوة ، نقدم بين يدي القارئ الكريم عددًا قليلاً من بين كثير ممن أعجبوا بعظمة نبي الإسلام محمد ﷺ :

(١) «كان محمد ﷺ هو روح الرحمة ، ولقد ظل تأثيره باقيًا خالدًا على مر الزمان ، لم ينسه أحد من الناس الذين عاشوا حوله ، ولم ينسه الناس الذين عاشوا بعده» .

(البروفيسور الهندي : ديوان شاند شارما في كتابه المعنون بعنوان : «أنبياء من الشرق» - كالكوتا ١٩٣٥- ص ١٢٢) .

(٢) «بعد مضي أربعة أعوام لوفاة الإمبراطور ستنيان في سنة ٥٦٩م ، وُلِدَ [١] في مكة في شبه الجزيرة العربية الرجل الذي مارس أعظم تأثير على كل الرجال في العالم» .

(دكتور جون وليام درابر في كتابه : «تاريخ التطور الفكري في أوروبا - لندن ١٨٧٥) .

---

(١) أثبت العلامة محمود باشا الفلكى أن مولده ﷺ كان فى يوم ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ فى بحثه «التقويم عند العرب قبل الإسلام» وقدمه إلى «الأكاديمية البلجيكية فى بروكسل» بالفرنسية. فووفق عليه ونشر ضمن بحوثها العلمية «المتوجة».

(٣) «أشك في إمكانية وجود رجل تغيرت الظروف من حوله ، واستطاع أن يغير نفسه ليتوافق مع تغير الظروف من حوله على هذا النحو الذي تحقق لمحمد ﷺ » . (والمعنى أن محمد ﷺ قد نجح نجاحًا تامًا في مواجهة أصعب الظروف ونجح نجاحًا تامًا في التغلب على كل العقبات التي اعترضت طريق رسالته) .

(ر .ف .ك . بودلي في كتابه : «الرسول» لندن ١٩٤٦- ص٩) .

(٤) «لقد عكفت على دراسة كل تفاصيل سيرته - إنه الرجل الفذ العظيم- وهو من وجهة نظري غير مُعَادٍ وغير معارض للمسيح عليه السلام ومن اللازم أن نطلق عليه اسم منقذ البشرية» .

(جورج برنارد شو في كتابه «عظماء الإسلام- المجلد الأول رقم ٨١٩٣٦) .

(٥) «بمصادفة فريدة كل التفرد في التاريخ يعتبر محمد ﷺ مؤسسًا لأمة من الأمم ، ومؤسسًا لإمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات ، ومؤسسًا لدين من أعظم الأديان» .

(ر .بوسويرث سميث في كتابه : «محمد ﷺ والديانة المحمدية- ١٩٤٦) .

(٦) «كان محمد ﷺ هو الشخصية الأكثر نجاحًا بين كل الشخصيات الدينية» .

(الإنسيكلوبيديا البريطانية - الطبعة الحادية عشرة) .